الدكتور أسعد علي

الدورة التربوية في القرآن الكريم

التربية هي إبلاغ كل شيء إلى كماله يسيراً يسيراً، من الشراح من انتبه إلى العلاقة بين الرب والتربية، فرب العالمين يربيهم برحمانيته ورحمته يسيراً يسيراً، حتى يوصل كل مخلوق إلى كماله...

□ فما هو منهج اليسر التربوي المفضل في القرآن الكريم؟

القرآن كتاب الله، المؤلف من أربع عشرة سورة ومائة سورة: منها ست وثمانون سورة مكية، وثمان وعشرون سورة مدنية...

ونسبة السور إلى «مكة والمدينة» لها فوائدها التربوية، لأنها تلفت إلى سياق الحياة النبوية في مكان معين، هو واقع المجتمع في مكة والمدينة...

يزيد هذه «الفوائد التربوية» وضوحاً، أن ننتبه إلى تتابع السور وفق التنزيل، لأن انتباهنا هذا يتدرج بنا في معايشة الدعوة النبوية، خطوة خطوة، ولأننا نكشف حكمة اليسر التربوي في منهج التطور المفصل بطبيعة الإنسان إلى أيام الناس هذه... فكيف نكتشف حكمة التربية التطورية في فن التأليف القرآني؟

أولى سور القرآن: سورة العلق، والثانية، سورة القلم، والثالثة سورة المزمل، والرابعة، سورة المدثر، والخامسة سورة الفاتحة...

إن ترتيب هذه السور، وفق الجمع، مختلف جداً. . . فالأولى، في التنزيل، هي السادسة والتسعون في الجمع، والثانية هي الثامنة والستون. . والثالثة هي الثالثة والسبعون، والرابعة هي الرابعة والسبعون. . والخامسة هي الأولى. . .

□ ندع ما بين التنزيل والجمع من اختلاف، ونعمد إلى التأمل التطوري لاكتشاف الحكمة التربوية الخالدة. . . فماذا نجد؟

ـ فسورة العلق، بداية التوجه المنهجي إلى بلوغ الكمال، ونقطة البدء. القراءة. . لكن هذه القراءة موجهة إلى ما هو أساسي خالد، فهي باسم الرب الخالق المعلم، فهو الأكرم الذي خلق الإنسان تفضلاً سخياً منه، وتعهده بالتعليم المتدرج تلطفاً رحمانياً صبوراً. .

الأمر بالقراءة الموجهة افتتاح لدورة الإعداد النبوي: دورة إعداد المعلم الذي يربي بدوره أمته وإنسانيته. . لكن دورة الإعداد لا تتم بلا معارضة، فمحمد (ص) يقبل طائعاً أن يكون المتعلم المتدرب، ليكون فيما بعد المعلم المدرب. . . غير أن أبا جهل مثلاً، يعارض افتتاح هذه الدورة التربوية ويهدد بوطء عنق محمد إن رآه ساجداً. . كما تشير إلى ذلك أسباب النزول. . لذلك يدافع الخالق المعلم عن رسوله، فيهدد أبا جهل ومن معه من معارضي القراءة الجديدة، ويطمئن رسوله إلى متابعة الدورة، فينهاه عن إطاعة المعارضة. .

هذه سورة القراءة: ﴿اقرأ باسم ربك﴾. ولا تطع المعارضين. . بل نفذ الأمر، فربك هو الأكرم الذي خلقك، وهو يتعهد تعليمك بالقلم، يسيراً يسيراً، لتبلغ كمال المعرفة في تعلم ما لم تكن تعلم، فكيف يتعلم بالقلم؟

سورة القلم مرحلة جديدة في الدورة التربوية الإعدادية، فيها تسجيل لنجاح الرسول بالمرحلة السابقة، ودفاع عنه، وثناء على خلقه، وتوجيه لمسيرته وطمأنة له. . وفيها تهديد للمكذبين بهذا الحديث التربوي، وفيها بشائر للمصدقين به المقتدين بحامله. .

فالرسول (ص) أثبت أنه أهل لنعمة ربه، وأنه على خلق عظيم. . وبشر بالأجر المستمر، كما بشر تابعوه بجنات النعيم. . وما عليه إلا الإطاعة والصبر، وسيبلغ كل شيء كماله في هذه الدورة التطورية لتربية الانسان، يسيراً يسيراً. . . فكيف يمارس الصبر في قبول الطاعة؟

الصبر: صبران، صبر على ما يحبه الإنسان ليبلغه أو صبر عنه، وصبر على ما يكرهه ليتجاوزه أو يغيره. .

في سورة القلم، أمر بالصبر لحكم الرب الأكرم، فالمعارضون لما يحمله الرب الأكرم

لرسوله (ص) يكذبون بحديث الرسالة الجديدة، ويحتالون لتفشيلها بأساليب أخلاقهم المناوئة لأسلوب الخلق العظيم، منهم حقير يحلف كذباً، وطعان يمشي بالنميمة، ومعتد أثيم يمنع الخير، وغليظ دعي ينتسب إلى غير قومه، هذه قوى المعارضة للخلق العظيم في التربية الحديثة. وعلى المربي المرسل ألا يطيع هذه القوى المضللة، وأن يصبر عليها، فسوف تؤدب كما أدب أصحاب البستان قرب صنعاء، وأصحاب البستان ورثوه عن أبيهم وكان أبوهم يحسن إلى الفقراء والمساكين، فيشاركهم ببعض ثمر بستانه كل عام، فإذا جاء وقت الجني ناداهم ليأخذوا كل ما ألقته الريح قبل القطاف، وكل ما أخطأه القاطفون من تمر وبلح، أو جني آخر.. أما الورثة فقرروا التنكر لأخلاق الأب، المتعاطفة مع أصحاب الحاجة من الفقراء والمساكين.. قرروا أن يقطفوا التمر مبكرين حتى لا يدخل عليهم المساكين.. لكنهم فوجئوا أن طائفاً ليلياً أهلك الثمر جميعاً... فلام بعضهم بعضاً على ما كانوا قد اتخذوه من قرار خاطىء.. ورغبوا إلى الله راجين أن يبدلهم خيراً مما فقدوه..

هذه صورة من العذاب، عوقب بها المغترون بقوتهم وبما يملكون.. وعذاب الآخرة أكبر، فهل يتعظ المكذبون من قوى المعارضة؟..

إن الله يُصَبِّر رسوله عليهم.. كما يصبّره على ما يحب بلوغه، فينهاه عن الامتلاء بالغيظ كما فعل صاحب الحوت يونس (ص).. فلولا أن تداركه ربه بنعمة منه لجر عليه غيظه الذمّ.. لكنّ الله اختاره وجعله من الصالحين، فعاد إلى قومه وصبر عليهم فاهتدوا.. إن المعلم الأكرم اختار محمداً (ص) للقراءة باسمه.. وتلك نعمة ربه التي قبلها طائعاً، وبخلق عظيم حمل كتاب القراءة الحديث ذكراً للعالمين.. فكيف تم التعامل معه؟

في سورة المزمل منهج للتدريب العملي يحدد وقت القيام ووقت النوم ليلاً، كما يحدد وقت السبح الطويل نهاراً... ولهذا التحديد غاية إعدادية

فالمعلم الأكرم يأمر رسوله المكلف (ص) أن يقوم الليل إلا قليلاً لأن له في النهار سبحاً طويلاً فلماذا القيام ولماذا السبح؟

إن غاية القيام ترتيل القرآن إحساناً في التلفظ به وإحساناً في استجلاء معانيه، وأسلوب الإحسان الترتيلي يعني القراءة المفكرة بهدوء ونظام.. والليل أكثر ملاءمة لهذه القراءة المتلقية، لأن أعمال النهار، المتموجة بالأشغال، لا تفسح مجالاً كافياً لمثل هذا التأمل في مثل هذا القول الجليل..

إن قيام الليل شاق على الذي كان متزملاً، أي الذي كان يتلفف بثيابه.. لكن هذه المشقة تؤجر بالقول الأقوم، لأن لذة المعرفة أعظم من لذائذ الدفء والنوم..

القيام الليلي والسبح النهاري مظهران لتحقيق الغاية العليا أو الهدف الأسمى، فالهدف الأسمى لدورة العلاقة بين الخالق والإنسان، أن يكون الحضور الإبداعي على مستوى الخلق وعلى مستوى التعلم، هذان هما مثالا الحضور الإبداعي، افتتحت بهما سورة العلق ليكونا تأسيساً لغاية الدورة التربوية في نشاط الليل ونشاط النهار..

وسورة المزمل ترسخ هذا التأسيس بالأمر: **﴿قم الليل إلا قليلاً. ورتل القرآن ترتيلاً. إن لك في النهار سبحاً طويلاً. واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً﴾**.

منهج الأمر هنا، تخصيص وتعميم، فلليل التعرف بالترتيل، وللنهار الممارسة بالسبح.. هذا وجه تخصيص عمل لكل وقت.. أما وجه التعميم فبالذكر والتبتل في الوقتين، وهنا رياضة النفس الداخلية. فلا ينبغي أن ينسى اسم الرب بترتيل أو سبح، بل يجب الانقطاع التبتلي إليه، فيكون حاضراً في الذاكرة دائماً، لأنه الغاية العليا، وما قيام الليل وسبح النهار سوى وسيلتين لتحقيق تلك الغاية باستحضارها المستمر.. فكيف يستمر التبتل المحضر؟

الرب حضور شامل كل مكان فهو رب المشرق والمغرب، وهو الإله الأحد، لا إله إلا هو يُؤمَر محمد (ص) أن يتخذه وكيلاً.. وأن يصبر على المكذبين المترفين فإن لهم حسابهم يوم ترجف الأرض والجبال، يومذاك يُطعَمون طعاماً ذا غُصّة ويقيدون بقيود ثقيلة.. في ذلك اليوم لا ملجأ للكافرين، كذلك كفر فرعون بالرسول الشاهد فأخذ أخذاً وخيماً. في ذاك اليوم تنشق السماء، ويُفعَل وعد الإله.. وحديث القرآن تذكرة ليأخُذ من يشاء السبيل الى ربه..

وتختم سورة المزمّل بما بُدئت به من التذكير بمنهج التدريب العملي، مع مراعاة ما لليل من قيام وما للنهار من سبح.

فالمعلم الأكرم يأمر بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم، مراعياً أحوال الرسول وأحوال طائفة ممن يقومون الليل معه.

علم المعلِّمُ الأكرم صعوبة التقيد بساعات معينة في الليل.. وعلم ما سيكون في المستقبل للمؤمنين، فقد يكون منهم المريض والضارب في الأرض، متاجراً أو متعلماً، والمقاتل في سبيل الله..

لذلك يسَّر عليهم منهج التدريب العملي، فأمرهم بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم، وبإقامة الصلاة وبإيتاء الزكاة المحددة، وباقراض الله قرضاً حسناً لأغراض الجهاد في سبيله، وباستغفاره وطلب رحمته..

هذه تمارين المنهج الميسّر. لتمارس في الليل والنهار، وفي كل الأزمان.. وخير الممارسة يجني في المستقبل عند الله أفضل الجني وأعظم الأجر..

سورة المزمّل منهج تفصيلي لإعداد الذات، ليلاً ونهاراً. ففي الليل القيام والقراءة، وفي النهار السبح والممارسة، وفي كليهما ذكر اسم الرب والتبتل إليه في المشرق والمغرب فلا إله إلا هو، وهو نعم الوكيل، وهو المعلم الأكرم وهو الغفور الرحيم..

وماذا إذا تم إعداد الذات وفق هذا المنهج الميسّر؟ أيعود المزمّل إلى تزمُّله بثيابه مرة أخرى؟ أيتدثر بثياب فوق ثياب؟

في سورة المدثّر جواب، والمتدثر من يلبس دثاراً فوق شعاره الملامس لبدنه، بينما المتزمّل من يتلفف بثيابه عموماً..

في فاتحة السورة أمر بالتوجه إلى القوم لينذرَهم بما علّمه الرب الأكرم، ولهذا التوجه أصول: تكبير الرب بعد تطهير الثياب، وهجر العذاب أو الأعمال التي تؤدي إليه.. أما أسلوب الإنذار، فالتبليغ دون منّةٍ أو استكثار، مع الصبر لأوامر الرب الآمر، فالإنذار باليوم العسير على الكافرين المعرضين عن قول الله.. فمن يصف قول الله بالسِّحر، سيصلى سقر، أي جهنم، التي عليها تسعة عشر من الملائكة، كل نفس رهينة بعملها إذا نُقرَ في الناقور وكان اليوم العسير..

يستثنى من هذا الارتهان أصحاب اليمين، أهل الجنات المتسائلون عن المجرمين وعن سبب دخولهم في سقر.. ويعترف المجرمون فيقولون: إنهم لم يكونوا من المصلين.. ولم يطعموا المسكين.. وكانوا يخوضون مع الخائضين.. وكانوا يكذبون بيوم الدين»؛ هذه الأسباب الأربعة التي أوجبت عليهم دخول جهنم.. قد مارسوها في حياتهم.. فلما ماتوا على عصيانهم لم تنفعهم شفاعة الشافعين..

صورة الإنذار بعذاب الآخرة تُصوِّرُ للأحياء الذين يخاطبهم رسول الرب الأكرم في مكة، ويذكرهم بفضل الله عليهم في الدنيا وبما يكون في الآخرة، فيعرضون عن التذكرة ولا يخافون الآخرة..

ويُؤمَرُ الرسول بالصبر لأوامر ربه، يُذكر الناس بالقرآن فمن شاء ذكره.. وما يذكرون إلا أن يشاء الله..

التذكير واجب الرسول.. ثم يدَعُ مُرسِلَه وحيداً مع من خلقهم، فالله الخالق أهل التقوى وأهل المغفرة، أي هو جدير بأن يتقى عقابه وجدير بأن تطلب مغفرته.. سورة المدثر صورة منهجية

لإنذار الناس بعذاب الكافرين في الآخرة.. ولتأميلهم بالثواب إذا آمنوا.. فالجنات للمؤمنين... وسقر للكافرين وعلى سقر تسعة عشر، أراد الله بعددهم سراً هو إحدى المعجزات الكبرى التي تجتذب إلى الإيمان مستقبل البشر... فماذا على الرسول بعد إتمام التبليغ؟

في سورة الفاتحة تكتمل الدورة التدريبية الأولى، ففي سورة «العلق» كانت مرحلة القراءة باسم الرب الأكرم الذي خلق وعلّم.. ووجه إلى تجاوز ما يُعوّق عن الوصول إلى بلوغ الكمال بمعرفته..

وفي سورة «القلم» كانت مرحلة الكتابة والتثبيت، فقد ثبت الرسول بأمر المرسل وأطاع الأوامر الربانية ليتجاوز مكروهات الصبر على قوى المعارضة، وليتجاوز مكروهات الصبر لتحقيق الغاية..

وفي سورة «المزمل» بدأت مرحلة الإعداد الذاتي قيام ليل وسبح نهار، وارتباطاً لسانياً بذكر اسم الرب الأكرم، وارتباطاً قلبياً مستمراً به.. فهو الوكيل الوحيد، رب المشرق والمغرب.. والصبر لأمره ضرورة المنهج العملي لبلوغ الغاية من هداية المصدّقين وإنذار المكذبين.

وفي سورة «المدثر» جاء الأمر بالمواجهة الإنذارية مع الصبر على المعرضين عن حديث الدعوة الجديد، فربهم هو الذي يعاقب وهو الذي يغفر.

وفي سورة الفاتحة، استراحة ختامية مطمئنة، فرب العالمين، هو الرحمن الرحيم وهو المالك يوم الدين.. فله الرحمة والقوة، يصيب بهما من يشاء في الدنيا والآخرة، وهو وحده جدير بالثناء عليه، لأنه خلق الإنسان كرماً وعلّمه تلطفاً..

فله العبادة ومنه العون والهداية..

وسبل الناس إليه ثلاثة.

الصراط المستقيم: سبيل من أنعم عليهم بالهداية والعون.. وسبيل المغضوب عليهم.. وسبيل الضالين..

هذه الدورة المنهجية الأولى بمراحلها الخمس:

القراءة الموجهة، الكتابة والتثبت الخلقي، الإعداد الذاتي، مراجعة الحساب لتكون فاتحة دورة جديدة، ترسخ لرب العالمين: الحمد والرحمة والرحمانية والمصير. وتؤكد الصلة به، عبادة واستعانة واستهداء.. وتعتبر مستويات الناس متباينة، ففيهم المهتدي والضال والمغضوب عليه.